د. درية كمال فرحات

البناء السّردي وتكوين الشّخصيّات في رواية وادي الغيوم لعلي نسر

وادي الغيوم رواية للكاتب"الدّكتور علي نسر"، تدور أحداثها حول البطل يوسف قنديل، ذلك الشّاب الأديب المبدع الذي يلفت انتباه الجنس النّاعم، فهو القادر على جذب النّساء نحوه، أو كما قال عنه صديقه صلاح: "هو المتفلّت الذي تتعرّى أمامه في كلّ يوم امرأة مختلفة، والكأس لا تفارق أصابعه"(ص 22). يوسف حامل هذا الاسم له دلالة سيميائيّة، فكأنّ يوسف الرّواية يأخذ من قصة النّبي يوسف تعلّق النّساء به، وانجذابهنّ إليه، لكنّ قميص النّبي يوسف صكّ براءة له، أمّا قميص يوسف بطل رواية وادي الغيوم فلم يكن بريئًا من مجاراة انجذاب النّساء نحوه، سوى امرأة واحدة وكان لتعفّفه معها أنّها لم تكن سوى زوجة صديق عمره "صلاح"، فكانت "ماجدة" كزليخة بالنّسبة إلى يوسف قنديل، إنّ مسّها فهو يمسّ القيم والمبادئ التي يؤمن بها.

ولم يكن يوسف البطل الذي يأخذ من اسمه معناه فقط، فالبطل المساعد في الرّواية أي صلاح، يأخذ اسمه علامة سيميائيّة مهمة، فاسمه يدلّ على مفهوم الاستقامة والعمل الصّالح والسّلامة من العيب، وهكذا كان حامل هذا الاسم، فهو بالنّسبة إلى يوسف الإنسان الهادئ المصلح الدّاعي إلى الخير وهو كما يقول يوسف عنه بأنّه "المتدين الذي تلوّنت جبهته من كثرة السّجود"(ص 6)، وما هذه العلاقة المغناطيسيّة التي تشدّ صلاح إلى رفيق مختلف عنه، إلّا لأنّه يرغب في إصلاحه "مشروع تخرّجي في الحياة أنت يا يوسف، لن أجعلك تفلت مني إلى النّار"(ص 7).

وهكذا كان اختيار الاسمين دلالة على الأبعاد النّفسيّة للشّخصيتين، وقد تناول فيليب هامون PH.Hamon اسم العلم في كتابه "سيمولوجية الشّخصيات الرّوائية"، ويعدّه علامة سيميائيّة تتحدّد دلالاته ومقاصده عبر السّياقات النّصّية والذّهنيّة، وذلك ضمن علاقات نصّيّة بنيويّة تفاعليّة قائمة عل التّقابل والاختلاف والاستبدال. ويقوم اسم العلم بدور تميزيّ للشّخصيّة داخل المسار السّرديّ والحكائيّ.

وإذا كان يوسف يمثّل صورة الشّاب الماجن، فإنّ الرّواية ليست قصّة "دونجوان" العصر، إنّما هي حكاية تجمع في ثنايا أحداثها الكثير من القضايا الاجتماعيّة والأفكار الفلسفيّة والوجوديّة والدّينيّة والحياتيّة.

والرّواية عبارة عن مشروع مشترك بين يوسف قنديل وصلاح إضافة إلى مرام، يتبادلون رواية فصولها، فيتحدّث كلّ راوٍ عن المواقف كما رآها هو أو عرفها، وتكتمل الحادثة عندما يتحدّث الرّاوي الآخر، وإن احتلّ يوسف القسم الأكبر فروى سبعة فصول من الرّواية، أمّا صلاح فروى أربعة فصول، واكتفت مرام برواية فصلين. وتعدّد الرّواة هو ما يفضّله بطل الرّواية عندما تحدّث عن روايته المفضلة "واعترفت لنفسي بأنّ جمال الرّواية في مضمونها هذه المرة إذ لا أحبّ هذا النّمط من الرّوايات التي يكون الرّواي أحادي السّرد والكلام والرّؤية، يحرم الشّخصيّات من قول ما تريد بشكل عفويّ ومنسجم مع حركتها ودورها ومستواها الفكريّ والاجتماعيّ، فأنا أكره الدّيكتاتوريّة حتى في الرّوايات والرّوائيين"(ص 91).

ولعلّنا نلمح ظلال الكاتب من خلال ما ذكره البطل يوسف، فقد مضى القصّ في الرّواية مستندًا إلى تعدّد الرّواة، يروون ما في داخلهم من تداعي أحداث الماضي، وربطه بما يجري في الخارج، فيتشكّل مسار سردين أوّلهما داخلي نفسيّ وثانيهما خارجيّ. وإذا اعتمد الكاتب في طرائق سرد الحوادث على طريقة التّرجمة الذّاتيّة عبر تعدّد الرواة، وأغفل ما له علاقة بطريقة

السّرد المباشر أي الرّاوي العليم، فهو في مقاطع أخرى من روايته يلجأ إلى طريقة المنولوج الدّاخلي، أي تيار الوعي، فيعرض من خلالها لخواطر الشّخصيّة ويستحضر ذكرياتها كيفما وردت إلى الذّهن ومن خلالها يكتمل رسم الشّخصية، وقد برز ذلك كثيرا من خلال حديث يوسف إلى نفسه، وفي رقدته بين أحضان والدته، فتعود الذّكريات إلى ذهنه فيخرجها لترتبط مع السّرد من دون الالتزام بتتابعها الزّمنيّ للحوادث.

وقد يتشكّل مسار السّرد من خلال دفتر الذّكريات الذي يلجأ إليه البطل يوسف قنديل، "دخلت إلى البيت، توجّهت إلى دفتري ذي الصّفحات الخريفيّة"(ص 10)، واللافت هو الرّبط دائمًا بين أوراق الدّفتر الصّفراء وأوراق الخريف المتساقطة، وكأنّ البطل بذلك يُسقط هذه الخواطر منه لتبقى شاهدة على انتهاء كلّ علاقة يقوم بها.

ومن طرائق سرد الحوادث المعتمدة طريقة الرّسائل وقد لجأ إليها الكثير من الرّوائيين ومن أبرز الأمثلة على ذاك رواية "آلام فارت" لغوته و"زهرة العم" لتوفيق الحكيم، وأيضًا فقد لجأ إلى هذه الطّريقة توفيق يوسف عواد في روايته "طواحين بيروت"، وفي هذه الطّريقة يمكن للرّوائيّ أن يحمّل الرّسائل جزءًا من مهمّة سياق النّصّ القصصي. أمّا في رواية "وادي الغيوم" فقد أبدل الكاتب علي نسر طريقة الرّسائل باعتماده على سرد فصول من رواية تُرجع البطل إلى "بداية الحرب مرورًا بهولها ونكساتها وصولًا إلى منتصف الأحداث"(ص 12)، وقد لازمت هذه الرّواية يوسف قنديل حتّى أدمن عليها، ولم تكن العودة إلى هذه الرّواية إلّا لتكمل المشهد الذي يرسم لنا شخصية البطل، وتبرز لنا الجانب النّضالي لديه. والكاتب علي نسر لم يذكر اسم الرّواية، ويمكن القول إنّنا بتنا أمام رواية ثانية يكتب نسر أجزاءً منها داخل روايته وادي الغيوم، لكنّ دورها هنا يكمن في رسم غير مباشر لشخصية يوسف قنديل.

إنّ رواية وادي الغيوم بما يحمله اسمها من دلائل سيميائيّة إضافة إلى أسماء بطليها، جعلتنا نعيش من خلال طرائق سرد حوادثها حكاية يوسف قنديل فهو الشّخصية الرّئيسة في الرّواية فكلّ الحوادث تدور حوله وكما يقول محمد يوسف نجم عن الشّخصيّة المحوريّة بأنّ كلّ ما يحدث في القصة من أحداث لا بدّ من أن يمسّها من قريب أو من بعيد ويؤثر في تلوينها بألوان جديدة، وهكذا كانت شخصية يوسف قنديل هي الشّخصيّة المحورية التي تدور في فلكها الشّخصيّات الأخرى.

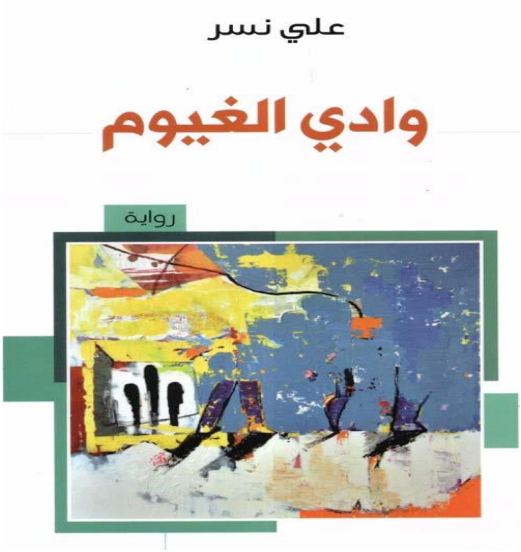

ولعل هذه المحورية للشّخصية الأساسيّة جعلت الكاتب علي نسر يهمل تحديد معالم الشّخصيات الثّانوية، فلم يظهر منها إلّا ما له علاقة في بناء حركية الأحداث المرتبطة بيوسف قنديل. وقد نقبل ألا نعرف من هي المرأة الجميلة المجهولة التي شاهدها في الأمسية الشّعريّة، واكتفى الكاتب فقط بإثارة فضول القارئ لاكتشاف هويتها، ولتكون ممهدّة للحديث عن مرام، لكنّ ما لم يكن مقبولًا هو إغفال إعطاء الصّورة الواضحة عن مرام وماجدة. فمرام تحبّه حبًّا كبيرًا، فيغدر بها وتخسر خطيبها بسببه لتتزوج رجلًا يعرف حقيقة مشاعرها، ويتركها مع أوراق ذكرياتها غير آبه لذلك وتكوّن معه عائلة في الاغتراب، لتعود لاحقًا للتّواصل مع يوسف، وتقرّ بحبّها له، وتكون لهما مغامرة جديدة، وترحل من جديد تاركة إياه لتلحق بعائلتها من دون أن يكتمل المشهد وإبراز واقعها النّفسيّ.

ونقف أيضًا حائرين مع المرأة الملتزمة التي اختلّ توازنها فراحت تبحث عن حلول تناسبها وحدها في أثناء غياب زوجها، فتطلب لقاءه لتعترف له، فيصدّها، ولم يعتمد الكاتب لعبة أجاثا كريستي في قصصها البوليسية، فلا نعرف القاتل إلّا في الختام، إنّما نراه يترك

للمتلقي الذّكي في أن يكتشف أنّ هذه المرأة ما هي إلّا ماجدة زوجة صديقه صلاح من خلال قراءته لما بين السّطور. وظلّت هذه العلاقة غير المكتملة هي موضعّ إعجاب صلاح به لأنّه تعفف عن الاستجابة لرغبات هذه المرأة التي رفض صلاح معرفة اسمها كي لا يحمل صديقه ويتحمّل معه شيئًا من الإثم. وهكذا بقيت ماجدة غامضة بتفاصيل نفسيتها، والأسباب التي قادتها إلى ذلك إلّا إذا أخذنا بالإشارة السريعة إلى اختلاف تربيتها العلمانيّة عن طبيعة حياة زوجها الدّينيّة. وظلّت هؤلاء النّساء يدرنَ حول البطل كما تدور الفراشات حول الضّوء من دون أن تدري أنّ في هذا الاقتراب من الضّوء احتراقًا لها.

رواية "وادي الغيوم" رواية تنطلق من شخصية يوسف قنديل لتكون محطّة لعرض الكثير من الآراء الفلسفيّة بين يوسف وأصدقائه، ولتشير إلى الواقع السّياسيّ للبيئة التي اختارها الكاتب لروايته، وللمعاناة من الطّائفيّة، وما تتركه هذه الطّائفيّة من مشاكل اجتماعيّة كما حدث مع أخته التي لم يعرف عنها إلّا بعد مرور سنوات عديدة على وفاتها وقد اصبح شابا وله ولدان.

وإذا تفنّن الكاتب علي نسر في طرائق السّرد منوّعًا بها، وأجاد في بناء الشّخصيات التي حقّقت مراده، فإنّ الرّواية شاهدة على أسلوبه السلس وحسن استخدامه للصّور البيانيّة التي حفلت فيها الرّواية ناقلة المراد الذي يبتغيه الكاتب.